وقفات مع سورة الحج

(اللقاء الأول)

أ.أناهيد السميري

ألقي يوم الثلاثاء ٣ ذو الحجة ١٤٣٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، وسمحت لهنّ الأستاذة بنشرها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِـلْـمٌ يُـنْـتَـفَـعُ بِـهِ)

http://tafaregdroos.blogspot.com/!#/

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.
- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)
http://www.muslimat.net/

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
هذا هو لقاؤنا الأول في سلسلة لقاءات بعنوان: وقفات مع سورة الحج، نسأل الله بمنِّه وكرمه أن يجعلها لقاءات مباركة وأن ينفعنا بها، وأن تكون سببًا لمغفرة الذنوب ورفع الدرجات هو ولي ذلك والقادر عليه سبحانه وتعالى.

وأول ما نبدأ نُذكِّر أنفسنا أنَّ هذه الأيام المباركة يستعد فيها المسلمون للسفر لحج بيت الله الحرام، منهم المتنفل بحجِّه، ومنهم من يؤدي فريضة الحج، فريضة الإسلام عليه. ولا شك أن ذلك يحتاج من هؤلاء الحجاج الاستعداد بما يلزم من جهة المال ومن جهة البدن والنية والقصد، والله تعالى يقول: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1] .

وخير مَعينٍ يتزود منه المؤمن هو كتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، والنبي يقول: ((تركتُ فيكم شيئَينِ لن تضِلوا بعدهما: كتابَ اللهِ، و سُنَّتي))[2] ومعنى هذا أننا لن نصل إلى ما يرضي الله إلا عن طريق كتاب الله، نعرف ونفهم مراد الله من كلامه ومن كلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولذلك سنعتبر أنَّ هذه الوقفات بمثابة الزاد؛ زاد الحاج إلى الحج، وزاد المتمتع بالعشر من أهل ديار المسلمين الذين قد منَّ الله عليهم بمشاركة أهل الموقف في طاعات وعبادات وربما سبقوهم بقلوبهم، وتأخر الحجاج عنهم، فالله ولي الخلق وأعلم بما في نفوسهم.

على كل حال نريد أن نتوقف مع سورة الحج؛ حتى نصل إلى مايحتاج إليه الحاج من زاد قلبه، ورسْم دربه، حتى يصل إلى ربه وهو راض عنه. وهذا سيقابله زاد المؤمن في حياته، حتى يصل إلى ربه وهو راض عنه.

---

(1) البقرة : ١٩٧

(2) صححه الألباني في جامعه.

أما سورة الحج فقد نُقل عن المفسرين أنها من أعاجيب السور:

- نزلت ليلًا ونهارًا، سفرًا وحضرًا، مكيًّا ومدنيًّا، سلميًا وحربيًا، ناسخًا ومنسوخًا، مُحكمٌ ومُتشابه.
- لم تجتمع في سورة غيرها سجدتين ولا مَثَلَيْن.
- ولم تسمَّ سورة غيرها بركن من أركان الإسلام.

فهذا يجعل لهذه السورة ميزةً على بقية السور، لو تأمّلها المتأمِّل، وجد أنها زاد للحاج في أيام الحج، وزاد لقاصد ربه في أيام حياته؛ ولهذا من المفيد هنا أن نقف أولًا على معنى كلمة الحج، الذي هو اسم السورة وفي نفس الوقت سيُبيِّن معاني كثيرة في داخل السورة.

الوقفة الأولى : في تسميتها سورة الحج

في تسميتها سورة الحج لذكر فريضة الحج فيها بعد بناء البيت العتيق. ومن المعلوم أنَّ الحج لم يُذكر فقط في سورة الحج إنما ذُكر في سورة البقرة وفي آل عمران، فالسورة سميَّت بسورة الحج تعظيمًا لشأن الحج ولذكر قصة الحج وأذان إبراهيم عليه السلام، ولذكر الأمور التي تتصل بالحج في سياق السورة.

السؤال: ما معنى الحج؟

الجواب: الحج لغة بمعنى **القصد**، ويُقال عند العرب: حَجَجْتُ فلانًا واعتمدته؛ بمعنى قصدته. ويقال : رجل محجوج يعني مقصود. ولهذا يأتي من معاني كلمة الحج : المَحجَّة؛ وهي جادَّة الطريق.

فالقاصد إلى شيء عليه أن يسير على جادّة الطريق ليصل.

والحج يمكن أن يأتي منه أيضًا كلمة الحُجَّة؛ تكون مشتقة منه؛ لأن الحُجَّة تُقصد من أجل الوصول إلى الحق المطلوب، يعني الإنسان يبحث عن الحُجَّة يقصد بها أن يصل إلى الحق.

فالحج يدور حول القصد. ثم تعورف استعماله في القصد إلى مكة والحج إلى البيت خاصة، فانتقل من معناه في اللغة إلى معناه الشرعي.

إذًا سنجد في هذه السورة المعنى اللغوي للحج والمعنى الشرعي له.

- فالسورة –والله أعلم– توجِّه مقاصد العباد إلى ربهم.

- والسورة تشتمل على الحج المخصوص الذي هو إلى بيت الله؛ تشتمل على أصل وجوبه والمقصود من أركانه- وهو الطواف- فالإحرام والوقوف بعرفات والسعي والحلق، هذا كله من أجل أن نصل إلى ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[٣] الذي هو طواف الإفاضة وهو من أعظم أركان الحج.
- ذُكر في السورة منافع الحج وأهمها تعظيم شعائر الله.

وغير ذلك مما قُصد بيانه في السورة عن الحج، فهذا معنى الحج الشرعي الذي اتضح في السورة.

وأُيِّد هذا المعنى أيضًا بمعنى القصد الذي هو معناه اللغوي أصلًا، فيراد به -والله أعلم- **الكلام عن قصد القلب إلى الله بالتوحيد.**

فالحج في اللغة القصد إلى معظَّم ، ومن أعظم من الله!؟

فأصبحت السورة:

- تحمل معنى الحج في اللغــة ← وهو الكلام عن القصد إلى الله بالتوحيد والتقوى.
- وتحمل معنى الحج الشرعي ← وهو الكلام عن مناسك الحج، بداية الحج، النداء إلى الحج، الطواف كَنُسُك عظيم من مناسك الحج.

الوقفة الثانية: في السورة خبر عن شعار الحاج ودثاره ، وهو التقوى

التقوى هذه، المسألة العظيمة، كم خوطب بها الإنسان! وكم أمر بها الرحمن! وأتت أبرز ما يكون في سورة الحج في مطلعها، وهي بارزة تامّة البروز في الأمر بالحج في سورة البقرة، لكن لا بأس نبدأ بالكلام عن التقوى في سورة الحج وإذا تيسَّر ننتقل إلى الموطن في سورة البقرة كشاهد على هذا المعنى.

الله عزَّ وجلَّ ابتدأ هذه السورة العظيمة ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ بدأت السورة بالنداء الذي يكون للبعيد الغافل عن الأمر تنبيهًا له، لأن {يا أيها} (يا): نداء ، (أي): المنادى ، (والهاء) هنا للتنبيه؛ ينبِّه للأمر الذي بعده ألا وهو التقوى، فالوصية بالتقوى والأمر بها من أعظم ماورد في القرآن، وأعمال الحج تدور حول هذا المعنى العظيم (**التقوى**).

---

(٢) الحج : ٢٩

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: "فما تزوَّد حاج ولا غيره أفضل من زاد التقوى، ولا دُعي للحاج عند توديعه بأفضل من التقوى، وقد رُويَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ودّع غلامًا للحج فقال: ((زَوَّدَكَ اللَّهُ التَّقْوَى))[٤]".

إذن يُفهم من كلام ابن رجب أن التقوى خير زاد للحاج وغيره، وهذا بالضبط لفظ القرآن، الذي أتى في سورة البقرة، يأمر الحجاج بالتزود ثم يأتي الخبر ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[٥].

فإذن زاد الحاج وغيره، أفضل الزاد هو التقوى

فمن هنا سنبدأ بمبحث في هذه الوقفة الثانية يقول: ماهي التقوى؟

أما من جهة العموم: فالتقوى أتت من كلمة الإتِّقاء، بمعنى الاحتراس من المكروه، فيصبح المعنى: "**أي اخشوه في أوامره أن تتركوها، ونواهيه أن تُقدموا عليها**" وهذا كلام القرطبي في بيان معنى التقوى.

على ذلك، التقوى تتضمن مسألتين عظيمتين تظهر من كلام القرطبي :

المطلوب الأول: الخشية.

المطلوب الآخر: أن ننظر إلى الأوامر والنواهي.

فسيترتب على ذلك مسألتين:

- **المسألة الأولى: أن نُفصّل أكثر في معنى التقوى؛ لكي نفهم كيف يكون تعاملنا مع الله.**

"التقوى –كما اشتهر– : هو أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله تخاف عقاب الله." هذا كلام طلْق ابن حبيب.

---

(٤) المعجم الكبير والأوسط للطبراني.

(٥) البقرة : ١٩٧

فهاهنا كلمات من طلق ابن حبيب العابد الزاهد الذي حدَّث عن ابن عباس وابن الزبير وعن جندب وعن جابر رضي الله عنهم أجمعين، وهو من كبار التابعين، لمّا ننظر لكلامه نرى أن في التقوى يجتمع العمل والترك، ويجتمع أيضًا أمر مهم وهو الرجاء والخوف، وفي كلا الحالين لابد أن يكون هذا على نور من الله.

إذًا نقارن بين شِقّي البيان الذي ذكره التابعي فنقول:

التقوى فيها:

- تعمل وتترك
- وترجو وأنت تعمل
- وتترك لخوفك
- ولا تعمل ولا تترك إلا ومعك نور من الله.

إذن من كان معه نورٌ من الله فليعمل بجوارحه وليعمل بقلبه، فمن عمل بجوارحه طاعة لله، فليرجو بقلبه ثواب الله.

لا تنسَ أيها التقي ← عليك أن ترجو –وأنت تعمل– ثواب الله.

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله.. الله أكبر الله أكبر ولله الحمد

فلا ينقطع قول لسانك عن عمل وجدانك، فتعمل طاعة لله ترجو ثواب الله، وتترك على نورٍ من الله، تعرف ما يسخط الله على نور من الله، وقلبك يعمل خوفًا من عذاب الله، تترك بجوارحك، وقلبك يعمل حال تركك خوفًا من الله.

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله.. الله أكبر الله أكبر ولله الحمد

كم نحن بحاجة لاجتماع القلب مع اللسان ومع الجوارح في جميع الأعمال لنتصوَّر ما معنى الله أكبر الله أكبر.

إذن معنى هذا: أن التقوى نور من الله تسير فيه في عملك وفي تركك طاعة لله، (تعمل طاعة لله ، تترك معصية الله، ترجو ثواب الله، تخاف عقاب الله).

ولهذا الفهم دلائله الكثيرة في كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم:

- من ذلك قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٦] هذه الطاعة التي هي الصيام تعملها على نور من الله ترجو ثواب الله تكون من أهل التقوى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.
- وقال نبينا صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: ((اتقوا اللهَ ربكُم، وصلّوا خمسكُم، وصُومُوا شهركُم، وأدّوا زكاةَ أموالكُم، وأطيعُوا ذا أمركُم، تدخُلوا جنةَ ربكُم))[٧] فبدأ الأمر باتقوا ربكم ثم ذُكرت الأعمال.
- **أيضا أتت أدلة تدل على أن التقوى فيها ترك المحرمات والشبهات** كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٨] وهنا إن كنتم أتقياء لا تجعلوا الله واليمين الذي تحلفوا به يمنعكم من البر.
- وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، قال الرسول صلى الله عليه وسلم ((اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ))[٩] الشاهد أننا كما نتقي بقيامنا بالطاعات، نتقي بتركنا للمعاصي: اتقوا الظلم، اتقوا الشح. **وربما دخل في التقوى بعد ذلك فعل المندوبات وترك المكروهات وبعض المباحات، وهذا أعلى درجات التقوى.**
- قال الحسن البصري رحمه الله –وهو من كبار من نُقل عنهم العلم بعد الصحابة – قال: "مازالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرا من الحلال مخافة الحرام".

---

(٦) البقرة : ١٨٣

(٧) رواه الترمذي وصححه الألباني

(٨) البقرة : ٢٢٤

(٩) رواه مسلم

فهذه التقوى من المتقين إنما تكون بعد دُرْبةٍ في ترك المحرمات والشبهات وفي القيام بفعل الواجبات، وفعلوا المندوبات وتركوا المكروهات ووصلوا إلى حال أنهم تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الحرام. هذا الكلام من عَلَمٍ من أعلام التابعين .

ومثل هذه الفهوم الدقيقة يفهمها من عايشها وذاق طعمها، ولذلك ما أحسن أن يُنار لك وأنت تسير إلى الله بنور من عند نبينا صلى الله عليه وسلم أو أصحابه الكرام أو التابعين الذين اتبعوهم بإحسان، من فضل الله أن يبقى لنا هذا العلم فنرى السالكين كأننا نراهم بأعيننا ونحن نقرأ كلامهم.

نُجمل ما مضى:

- بدأت سورة الحج بالنداء وأتت الوصية بالتقوى.
- ثم ناقشنا معنى التقوى على وجه العموم من كلام القرطبي وهو الاحتراس.
- ثم انتقلنا إلى أن التقوى تتضمن مسألتين عظيمتين: ١. معنى التقوى بالتفصيل. ٢.مورد التقوى.

➢ **المسألة الثانية: مورد التقوى.**

إن التقوى لابد أن تكون بعلم على نورٍ من الله، قال ابن رجب رحمه الله : "وأصل التقوى أن يعلم العبد مايتقي ثم يتقيه"، فلا بد للحاج وغيره السالك إلى ربه أن يتعلَّم ويستشعر ما يحقق له التقوى؛ التي هي الأساس المقصود من التشريع، والنتيجة المرجوّة منه.

ومن خلال ملاحظة سورة الحج يتضح أن مما يعين على التقوى أمران علينا أن نتعلمهما:

نريد أن نصل إلى العلم الذي يورثنا التقوى، وهو مورد التقوى أي مثل الوريد كيف يكون فيه الدم. فما الذي يكون وريدا للتقوى؟ العلم، العلم بماذا؟

الأول: العلم عن الله ، وهذا يكون من شقين :

١. التعلم عن الله وصفاته وأفعاله بتدبر القرآن.
٢. التعلم عن الله وكماله وجلاله من خلال التفكر في أفعاله خاصة ما أرشدنا وأمرنا القرآن بالتفكر فيه.

الثاني: العلم عن لقاء الله

اليوم الأخير، الآخر، الذي ليس بعده يوم، نتعلم عن اليوم الآخر الذي سيكون وقتًا للقاء الله، ولافتراق الناس، ولانقسامهم، ولبيان حقيقة أحوالهم، فذاك اليوم ومافيه من أهوال وأحوال وانقسام الناس واختلافهم وكيف يكون لقاؤهم مع ربهم، وكيف تتلقاهم الملائكة، كل هذا والعلم به مما يورث التقوى في قلب العبد ويجعله يضبط أفعاله وكلامه وسلوكه إلى ربه، الحاج وغير الحاج.

ومن العجائب أن هذه السورة حملت هذا بالتفصيل، حملت هذين النوعين بالتفصيل، أما العلم عن الله وأسمائه وصفاته فتجد في السورة عجبًا، وأما الأمر بالتفكر في أفعاله فإنك لا تخطؤه أبدا في السورة. وأما الكلام عن اليوم الآخر وأهواله وكيف يختصم الناس ﴿خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ وهذا من أوضح المسائل التي بُينت في السورة.

فسبحان من أمر بالتقوى ثم علّم عباده كيف يصلون إليها، وكيف يعيشونها، وكيف يُغذُّونها، وكيف يُقبلون على ربهم وقد سلمت نفوسهم وأصبحت سليمة بسبب ممارستهم للتقوى.

إن المتأمل لسورة الحج يرى آثار ودِّ الله وحبه لخلقه، وحب النجاة لهم، فقد فصَّل لهم كل حال، وقسَّم لهم الناس إلى أصناف ووصف لهم هذه الأصناف وصفًا دقيقا، وبيّن لهم الطريق بيانًا عظيما، فما أحوجنا لتدبر السورة ونحن إلى ربنا سائرين وبلقائه موقنين، ولنعمائه راغبين، ومن خوفه مشفقين.

وأول ما يلزمنا في النظر في هذه السورة من أجل أن نتعلم التقوى هو: **أن نرى الأسماء والصفات والأفعال لله عزَّ وجلَّ**، الواردة في السورة العظيمة —سورة الحج– من أجل أن يكون هذا لنا نبراسًا، ونزداد يقينًا أنه سبحانه وتعالى علّمَنا كيف تكون تقواه.

فإذا نظرنا إلى **الأمر بالتقوى**؛ سنجده مقرونًا باسم **الرب** {اتقوا} وأتى بعد الأمر بالتقوى الخبر أن تقواكم ستكون لـ ربكم ، ربكم الذي رباكم.

ثم نجد هنا من العجائب **تكرار اسم الله العظيم** في هذه السورة، تكرارًا ملفتًا للنظر، وهذا أمر من الضروري أن نقوم به بأنفسنا لكي يتبين لنا، فلو ذكرنا الإحصائيات وقلنا تكرر اسم الله في السورة كذا وكذا .. لن يكون مثلما تبحث بنفسك وتقرأ وترى كيف السورة التي فيها كلام عن تعظيم الله كيف تكرر فيها اسم الله.

ثم إن هذه السورة **ورد فيها اسم الله الحق**، وهو اسم عظيم من أسماء الله، أنسب ما يكون لهذه السورة ، فالله هو الحق وهو المستحق لأن يُعظَّم.

وفي هذه السورة أيضا **أتى اسمه الإله**؛ وهو الإله الذي يُحَب ويُعظَّم.

وأتى **قدير، وقوي، وعزيز، وأتى عليم، حكيم**، ثم ترى عجبا في تتابع أسمائه وصفاته، فتسمع عنه أنه **خير الرازقين**، وتسمع عنه أنه **عليم حليم**، وأنه **عفو غفور**، وأنه **سميع بصير**، وأنه **علي كبير** ، وأنه **لطيف خبير**، وأنه **غني حميد**، وأنه **رؤوف رحيم**.

فأين نحن عن هذه الأسماء!؟ وأكيد أنه سيلفت نظرنا وصفه بأنه **نعم المولى ونعم النصير**، كما هو في آخر السورة،

وسيلفت نظرنا تكرر **اسم الحق** مرتين، **والقوي العزيز** أيضا **والسميع البصير**.

فما الشأن؟ وماهذه السورة العظيمة التي تجمع هذه الأسماء والصفات؟ وما هذه الأخبار عن أفعاله؟

ترى في السورة من أفعاله ما تتعجب لاجتماعها: (خلقناكم، لنبين، نُقرّ، ما نشاء، نخرجكم، فإذا أنزلنا عليها الماء)، تسمع عنه (يحيي الموتى، أنه على كل شيء قدير، يبعث من في القبور)، تسمع عن عظمته وجلاله وجبروته ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله.. الله أكبر الله أكبر ولله الحمد

من نظر إلى هذه السورة العظيمة وجد انفرادها بكثير من أفعال الله عزّ وجلّ وصفاته، فقد ورد فيها **اسم الله العظيم** مكررًا، وقد ورد فيها جملةً من أسمائه تدلّ على **كمال صفاته، وكمال جماله وجلاله** سبحانه وتعالى، وقد ورد فيها **نفي النقص عنه**، ألم تسمع وهو يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ(٩)ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

فما أعظمه وما أجلّه وما أكمله سبحانه وتعالى، فمن لم يعرف لله أسماء الجمال ومن لم يعرف لله أسماء الجلال فلن يقع في قلبه التعظيم ولا الإجلال ولا المحبة ولا الإقبال.

فإذا تأمّلنا السورة وما لله عزَّ وجلَّ من كمال، وماله من فِعال، تسمع ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾، وتسمع ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، وتسمع ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، فتسمع في السورة عجبًا من أفعاله، وتسمع في السورة عظيم فِعاله، وتسمع فيها ما يرغبك في لقائه.

لو بحثنا في السورة عن الرزق وكم تكرر فيها الخبر عن أنه هو الذي يرزق إلى أن نصل أنه خير الرازقين لتعجبنا!.

فأما التقصير فمنا، وأما الحلم والستر والعفو فصفته سبحانه وتعالى، وإلا كيف نغفل أن من هذه صفاته وأفعاله! وكيف لا نخاف من الخيانة وكفران النعمة؟! والله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

المقصود: أن من أراد تعظيم ربه وهذا التعظيم الذي يأتي بقلبه لتقواه سبحانه وتعالى، فليقرأ هذه السورة قراءة من يريد أن يعرف ربه، قراءة من يتعرف على الله فيجد ربه قد أكرمه وعلّمه عن نفسه.

أسال الله أن يشرح صدورنا لهذه العلوم العظيمة، ويصرف لها همومنا ويصرفنا عن مايشغلنا عن هذه المقاصد العظيمة.

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله.. الله أكبر الله أكبر ولله الحمد

فإذا تبيّن لنا ما وصف الله به نفسه في السورة، وكان هذا الأمر يحتاج منا مزيد بيان وإيضاح ومناقشة، لكن يأتي بأمر الله الوقت الذي نتناقش فيه في أسمائه وصفاته الواردة في هذه السورة بشيء من التفصيل، نسأل الله أن يمدَّ في أعمارنا وينفعنا بالعلم عنه.

ناتي للمسألة الثانية المهمة، وهي كيف أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أخبارًا خاصة علينا التفكُّر فيها

ومن المعلوم أن هذا موجود في القرآن كله ولا يختص بسورة الحج، كما أن أسماء الله وصفاته وأفعاله لا تختص بسورة الحج، لكن المقصود أنه قد ذُكر في سورة الحج طرفًا لذلك.

فإذا نظرنا إلى مطلع السورة سنجد أن الله يحتجّ على هؤلاء المخالفين المجادلين المتبعين للشيطان المريد، أو المقتنعين بشيءٍ من أفكاره، يجادلهم –وهم حزب الشيطان المنكرين لقدرة الله– أن يتفكروا في ابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه سيعيده، ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ وهذا المقصود به خلق أبو البشر آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ ثم يذكر سبحانه وتعالى أفعاله، وهذا أمر من الواجب النظر فيه والتَبيُّن.

ثم أننا نقرأ في سياق هذه الآيات أمرا عجيبًا، فنسمع ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ هذا من أفعاله، ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ ففهمنا أن المقصود به أبو البشر ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ ومعروف النطفة وهي بداية التخليق (المني)، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي تنقلب تلك النطفة بأمر الله إلى دم أحمر يتعلق في الرحم، ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ أي قطعة لحم بقدر ما يُمضغ ﴿مُخَلَّقَةٍ﴾ يعني مصور منها خلق الآدمي، ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ وهو السقط الذي يُقذف قبل أن يكتمل، ثم يأتي هنا فعل عجيب له سبحانه وتعالى ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ فانظر إلى هذا التخليق وانظر إلى هذا السقط، أليس الله قادر على إكماله في لحظة؟ الجواب بلى.

يسقط هذا السقط فتراه، فتظهر لك قدرة الله على تحويل هذه النطفة إلى علقة إلى مضغة ثم تتحول إلى آدمي إن أراد الله إكمال خلقه أو تسقط فتراها أمام عينيك قطعة لحم فيظهر لك من أنت! من أي شيء جئت؟ ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أصل نشأتكم، ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ثم يخبر عن فعل من أفعاله يجب أن يبقى مُسنَدًا له ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ فعل من أفعاله، تأمل فيه ترى عجبًا، من أخرجه من الضيق؟ ما أخرجه إلا الله!

ومثل هذا الفعل يأتي فعله سبحانه وتعالى في هذه الأرض التي تنبت ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

المقصود أنه سبحانه وتعالى عَلّم عباده كيف يفكرون، كيف يتفكرون، كيف يستعملون ماوهبهم من عقول وما أظهر لهم من أدلة ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾. هذا كله: التخليق ومراحله التي يمر بها الإنسان إنما ليَظهر لك قدرة الله، فالله قادر على أن يقول له كن فيكون.

ومثل هذا في الأرض التي تكون ميتة فيحييها الله، فأين التفكر في نعمائه وعطاءه؟! كيف ونحن نسمع في ثنايا هذه السورة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، نحن يقال لنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، ويقال لنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(٦٥)وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾، إذًا هذا كله الذي تراه حولك من آيات مابالك لاتفكر فيها؟ ولا توصلك إلى دلالاتها؟

إلى أن تختم السورة بأمر عجيب عليك أن تتفكر فيه ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ(٧٣)مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ

﴿قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٧٤)اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إن الناس لم يقدِّروا الله حق قدره، فلا أسماؤه وصفاته عرفوا، ولا في أفعاله تفكروا، ما شغلوا قلوبهم ولا عقولهم ولا أبصارهم ولا أسماعهم بما يجعل معرفة الله مستقرة، ومن ثَم تقواه، ومن ثَم السير إلى رضاه، فلا عذر لنا بعد أن علَّمنا عن أسمائه وصفاته وأفعاله، وبعد أن أرشدنا أن نتفكر في آياته التي تدور حولنا.

أمثلُ هذا الخطاب يترك ولا يستجاب له؟!

يقول لنا ربنا: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ونترك هذا الخطاب !! **كيف لا نرى؟**

- ونحن نرى بأعيننا أن الله ينزل من السماء ماءًا فتصبح الأرض مخضرة.
- بأعيننا نرى أن الله سخر لنا مافي الأرض و الفلك تجري في البحر بأمره،
- ونرى بأعيننا أن السماء ما يمسكها إلا الله، أليست تخالف القوانين التي يفكر بها الخلق؟ فكل شيء مرتفع لابد له من عامود يتكيء عليه؟ من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا من خلقها؟!

فالمقصود أن هذا هَجْر، والمطلوب ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المطلوب أن نهاجر في سبيل الله، نهجر لذائذنا التي تسلطت علينا، إن رواحلنا التي نركبها لنصل بها إلى الله، أبداننا التي ستنفصل عنا أشغلتنا، فكيف سيكون شأننا لما نلقى الله بقلوب لا تعرف الله؟!

ولهذا من موارد التقوى: العِلم عن لقاء الله

وكما هو متبين في هذه السورة أنه **بدأ سبحانه بذكر القيامة وأهوالها حثًّا على التقوى التي هي أنفع زاد** ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ بمعنى أمر كبير وخطب جلل، فالزلزال يحصل به للنفوس فزع ورعب، وأصل كلمة الزلزال من زلّ عن الموضع، فذاك اليوم تزلُّ الأقدام، وذاك اليوم تشيب له رؤوس الصبيان.

فنسأل الله أن يهون علينا هول الموقف ويجعلنا ممن تبشرهم الملائكة وتكون سببًا في تأمينهم من الفزع الأكبر، ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ .

ومن العجيب أن هذه الآية ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ إنما هي في أواخر سورة الأنبياء التي تسبق مباشرة سورة الحج، والفائدة من ذكر الزلزلة وأهوال هذا الموقف هو التحريض على التأهُّب له والاستعداد للعمل الصالح.

فإن أثر هذه التقوى يُعلم عند المحن والشدائد، وقد تبين في أول السورة كيف أثر هذه الزلزلة :

- ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ رؤية بصرية، ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ تكون قد وضعت في فم رضيعها الثدي لترضعه، فتنزعه من شدة الهول وتذهل عنه، وتتركه، ومثل هذا في حُكْم الأمهات مايكون إلا لهولٍ عظيم! وإلا الأصل في علاقة الأمهات بأبنائهم أنهم لا يفكرون في وقت الهول إلا في الأبناء وكيف يحمونهم؛ لكن من شدة هول ذاك اليوم ينقلب الأمر، فلا تعتني بصغيرها مما وقع عليهم من هول.
- ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ يعني يسقط عنها قبل تمامه من شدة الفزع والهول.
- ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ بسبب هذه الشدة والهول طاشت عقولهم، واضطربت أفهامهم، فصاروا كالسكارى؛ سُلب منهم كمال التمييز وصحة الإدراك، في ذاك اليوم تسوّد وجوه وتبيّض وجوه، تُنْصَب الموازين التي يوزن بها مثقال الذر من الخير والشر.

اللهم سلّم سلّم وعاملنا بسترك وعفوك وصفحك، وكما سترتنا في الدنيا فإنا نرجوك أن تسترنا يوم أن نلقاك.

هذه صورة من صور ذلك اليوم العظيم ، **ثم أتت الآيات تصف موقفًا آخر من مواقفهم**، فيقول الله:

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ(١٩)يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ(٢٠)وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ(٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ .

وصورة أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ .

فهذه صور مما سيكون يوم القيامة وهو زادٌ لهذا الإنسان؛ به تزداد تقواه، ويَصحُّ يوم القيامة مع الله لقاه، أما إن ضعفت المعرفة بالله وإن تركنا التفكُّر في أفعاله التي تمر علينا وخاصة ما أمرنا به، وإن أغفلنا الآخرة وأصبحنا نفكر في دنيانا ولا نرى من أفعال ربنا إلا ما يرضينا في دنيانا، وأصبحت الدنيا أكبر همنا فلا تمر الآخرة على خواطرنا، فهذا من المؤكد أنه مضعف للتوبة والأوبة والاستقامة، مطفئ لنور الله من القلب، ذاهبٌ بالتقوى؛ لأن التقوى إنما هو نور من الله تعمل به، التقوى حصيلة علمك عن الله بأسمائه وصفاته، وانشغال قلبك بالتفكر في آلائه، وتذكر خاطرك دائمًا للقائه، تجد نورًا يهيّج قلبك للسير إليه، تعمل وتترك، ترجو وتخاف، وأنت سائر تقول: اللهم سلِّم اللهم سلِّم.

فخير زاد لكل مسافر إلى ربه، حاجًّا كان مسافرًا ببدنه أم باقيًا مسافرًا بقلبه، إن زادك التقوى، والتقوى موردها هذا العلم، فانكب على هذه السورة، تعلمًا وفهمًا، قراءةً وتفكرا، فإن لذيذ خطاب الله إنما هو بكتابه.

قال جندب ابن عبد الله رضي الله عنه: "عليكم بالقرآن فإنه نور بالليل وهدى بالنهار".

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله الله أكبر الله أكبر ولله الحمد

إذا يسَّر الله لقاء آخر نقف وقفات أخرى مع هذه السورة العظيمة، فنتدبر قصة الحج، وكيف أنعم علينا بهذا البيت، وشرّفنا بالاجتماع فيه، وربطنا به بالحنيفية السمحة ملّة أبينا إبراهيم عليه السلام.

أسأل الله بمنِّه وكرمه أن يجعله لقاءًا قريبًا وييسِّره لنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.